﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾ [الشعراء]

أما أصحاب الأيكة ، فكان داءهم أنْ يُطففوا المكيال والميزان ، فجاء شعيب - عليه السلام - ليقول لهم :

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢)﴾

الكيل : آلة تُقدّر بها الأشياء التى تُكال ، ووحدته : كَيْلة أو قَدح أو أردب . والميزان كذلك : آلة يُقدَّر بها ما يُوزَن .

ومعنى ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١)﴾ [الشعراء] المخسر : هو الذى يتسبب فى خسارة الطرف الآخر فى مسألة الكيل ، بأن يأخذ بالزيادة ، وإنْ أعطى يُعطِى بالنقصان ، وفى الوزن قال ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (١٨٢)﴾ [الشعراء]

والقسطاس : يعنى العدل المطلق فى قدرة البشر وإمكاناتهم فى تحرِّى الدِّقَّة فى الوزن ، مع مراعاة اختلاف الموزونات ، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلاً ، غير وزن العدس أو السمسم ، فعليك أنْ تتحرّى الدقة قَدْر إمكانك ، لتحقق هذا القسطاس المستقيم .

لكن ، لماذا خصَّ الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم ، ولم يذكر مثلاً القياس فى المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع ؟

قالوا : لأن الناس قديماً - وكانت أمماً بدائية - لا تتعامل فيما يُقاس ، فلا يشترون القماش مثلاً ؛ لأنه كان يُغزل ، تغزله النساء

ويغزله الرجال ، ولم يكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له ، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد .

وقديماً ، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة ، وفى هذه الحالة لا يوجد بائع على حدَة ولا مُشْترٍ على حدَة ، فلا يتفرد البائع بالبيع ، والمشترى بالشراء ، إلا فى حالة مبادلة السلعة بثمن ، كما قال تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. (٢٠) ﴾ [يوسف] أى : باعوه .

أما فى حالة المقايضة ، فأنت تأخذ القمح تأكله ، وأنا آخذ التمر آكله ، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسلعة ، فإنْ قدَّرْتَ أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشترٍ . تقول : شَرَى وباع . وإنْ قدَّرْت الأثمان التى لا ينتفع بها انتفاعاً مباشراً كالذهب والفضة ، أو أى معدن آخر ، وهذه الأشياء لا تؤكل فهى ثمن ، أمّا الأشياء الأخرى فصالحة أنْ تكون سلعة ، وصالحة لأنْ تكون ثمناً .

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هى « سورة المطففين » ، يقول سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين]

نقول : كال له يعنى : أعطاه ، واكتال عليه يعنى : أخذ منه . فإن أخذ أخذ وافياً ، وإنْ أعطى أعطى بالنقص والخسارة . والقرآن لا ينعى عليه أن يستوفى حقّه ، لكن ينعى عليه أن ينقص من حقِّ الآخرين ، ولو شيئاً يسيراً .

فمعنى (المطففين) من الشيء الطفيف اليسير ، فإذا كان الويل لمن يظلم فى الشيء الطفيف ، فما بال مَنْ يظلم فى الكل ؟

فاللوم هنا لمَنْ يجمع بين هذين الأمرين : يأخذ بالزيادة ويُعطى بالنقص ، أما مَنْ يعطى بالزيادة فلا بأس ، وجزاؤه على الله ، وهو من المحسنين الذين قال الله فيهم : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة]

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمُّون بقياس دقة آلات الكيل والوزن والقياس ، فَوُجدت هيئات متخصصة فى معايرتها والتفتيش عليها ومتابعة دقَّتها ؛ لأنها مع مرور الزمن عُرْضَة للنقص أو الزيادة ، فمثلاً سَنجة الحديد - التى نزن بها قد تزيد إنْ كانت فى مكان بحيث تتراكم عليها الزيوت والتراب ، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت ، كما تنقص مثلاً أكرة الباب من كثرة الاستعمال ، فتراها لامعة ، ولمعانها دليل النقص ، وإنْ كان يسيراً .

وفى فرنسا ، نموذج للياردة وللمتر من معدن لا يتآكل ، جُعلَتْ كمرجعٍ يُقاس عليه ، وتُضبط عليه آلات القياس .

ورأينا الآن آلات دقيقة جداً للوزن وللقياس ، تضمن لك منتهى الدقة ، خاصة فى وَزن الأشياء الثمينة ؛ لذلك نراهم يضعون الميزان الدقيق فى صندوق من الزجاج ، حتى لا تُؤثِّر فيه حركة الهواء من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا(١) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾

البخس : النقص ، ومعنى ﴿أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] حقوقهم

(١) عَثَا عثواً : أفسد أشد الإفساد . [القاموس القويم ٢/٧] .

إذن ، فالنقص من حَقِّ الغير ذنب ، وقد يكون البخس بأخْذ الشيء كله غَصْباً ، أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

وهذا كله داخل في ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] كل ما ينقص الحق بأخذه بإنقاص . أو غَصْب أو تصرّف على غير إرادة صاحبه فهو بَخْسٌ للشيء .

فكل ما ثبت أنه حق لغيرك إياك أنْ تعتدي عليه ، فالزكاة مثلاً حينما يقول ربك - عَزَّ وجَلَّ - : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

فما دام قد قيَّده الشرع ، فلا تبخس أنت حَقَّ الفقير ، لأنك حين تتأمل هذا الحق المعلوم الذي جعله الله من مالك للفقير ، تجد أنه وُضع بحكمة تُراعي مدى حركة المموِّل ، وما بذل من جهد ونفقات في سبيل تنمية ماله ، حتى وجبتْ فيه الزكاة .

فكلما زادتْ حركتك قَلَّ مقدار الزكاة في مالك ، فمثلاً الأرض التي تُسْقى بماء المطر فيها العُشْر ، والتي تُسْقى بآلة ونفقات فيها نصف العشر ، وفي عروض التجارة وتحتاج إلى حركة أكثر قال رُبْع العُشْر ، ذلك لأن الشارع الحكيم يريد للناس الحركة والسعي وتثمير الأموال ، حتى لا يأتي مَنْ يقول : كيف أسعى ويأخذ غيري ثمرة سعيي ؟

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء ، فإنما يحمي به الفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء . وقد حدَّد الشارع هذا الحق ، حتى لا تزهد في العطاء ، خاصة في الزكاة .

إن منهج الله يريد أنْ يُصوِّب حركة الحياة من الأحياء ، يريد ألاَّ يجري دم في جسد إلا بخروج عَرق من هذا الجسد ، وألا يدخل دم

فى جسد من عرق سواه ، وإلاَّ فسد المجتمع ، وضَنَّ كل قادر على الحركة بحركته ؛ لأنه لا يطمئن إلى ثمار حركته أنها لا تعود عليه ، أو أن غيره سيغتصبها منه بأىِّ لون من ألوان الاغتصاب .

عندها يفسد المجتمع ؛ لأن القوى القادر سيزهد فى الحركة فيقعد ، والآخذ سيتعوَّد البطالة والكسل والخمول ، ولماذا يعمل وما يجرى فى عروقه من دماء من عمل غيره ، وبمرور الوقت يصعب عليه العمل ، وتثقُل عليه الحركة ، فيركَنُ إلى ما نُسمِّيه (بلطجى) فى الحياة ، يعيش عالة على غيره .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُطمئن كل إنسان على حركته فى الحياة وثمرة سَعْيه ، فلا يتلصص أحد على ثمرة حياة الآخر ؛ لأنه إنْ كان عاجزاً عن الحركة فقد ضمن له ربُّه حقاً فى حركة الآخرين تأتيه إلى باب بيته ، سواء أكانت زكاةً أم كانت صدقة ؛ وبذلك تسلَم حركة الحياة للجميع .

لذلك أراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُعطينا الموازين الدقيقة التى تحفظ سلامة التعامل بين الناس : فإنْ كلْتَ لغيرك فوفِّ الكيل ، وإنْ وزنتَ فوَفِّ الميزان ، واجعله بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخس الناس حقوقهم بأى صورة من الصور .

ولا يقتصر الأمر على هذه المسائل فحسب ، إنما هى نماذج للتعامل ، تستطيع القياس عليها فى كل أمور الحياة فيما يُقَاس وفيما يُعَدُّ ، فى الأعمال وفى الصناعات .. إلخ .

إذن : فاحذر أنْ تتلصَّص على حقوق الآخرين ، أو أن تبخسها ، بأىِّ نوع من أنواع التسلُّط : غَصْباً أو اختطافاً أو سرقةً أو اختلاساً أو رِشْوة .. إلخ .

وقلنا : إن السرقة أن تأخذ شيئاً من حِرْزه فى غير وجود صاحبه ، والخطف يكون صاحب الشىء موجوداً ، لكنك تأخذه خَطْفاً وتفرّ به قبل أن يُمسك بك ، فإنْ أمسك بك فغالبْتَه وأخذتها رَغْماً عنه فهى غَصْب ، أما الاختلاس فأنْ تأخذ من مالٍ أنت مؤتمَنٌ عليه ، ما لا يحقّ لك أَخْذه .

فإذا علم كُلُّ متحرك فى الحياة أن ثمرة حركته تعود عليه ، وعلم كل غير متحرك أنه يموت جوعاً إنْ لم يعمل وهو قادر دبَّتْ الحركة فى كل الأحياء ، وهذا ما يريده الله تعالى لخليفته فى الأرض خاصة ، وقد خلق لنا سبحانه العقل الذى نفكر به ، والطاقة التى نعمل بها ، والمادة التى نستعين بها ، فكلُّ ما علينا أن نُوظّف هذه الإمكانات التى خلقها الله توظيفاً مثمراً .

ثم إنْ كانت الزكاة كحقٍّ معلومة محددة ، فهناك حَقٌّ آخر غير مُحدَّد ، فى قوله سبحانه : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) ؛ لأن المراد هنا الصدقة المطلقة ، وقد تركها الحق - تبارك وتعالى - ولم يُقيِّدها ليترك الباب مفتوحاً أمام أريحية المعطى ، ومدى كرمه وإحسانه ؛ لذلك جاءت هذه الآية فى سياق الحديث عن صفات المحسنين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ولأن الحق هنا تفضُّل وزيادة تركه الشارع الحكيم دون تحديد .

وعجيب أن نرى أصحاب الأموال حين يُخرج أحدهم رُبْع العشر

(١) الهجوع : النوم ليلاً . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجع] .

مثلاً من مـاله ، لا ينظر إلى ما تبقَّى له من رأس المـال ، وهى نسبة ٩٧,٥٪ ، وينظر إلى حَقِّ الفقير وهو يسير ٢,٥٪ .

فنراه يحتـال عليه فيُؤثِر به أقـاربه أو معارفه ، أو يضعـه بحيث يعفيه من حق آخر ، كالذى يعطى زكاته للخـادمة مثلاً ، ليُرضى أمها حـتى لا تأخـذهـا من يده ، ومنهم مَنْ يضع أمـوال الـزكـاة فى بناء مسجد أو مدرسة أو مسـتشفى ؛ وهذا كله لا يجوز ؛ لأن مال الزكاة حَقٌّ للمسـتحقين المعـروفين نصاً فى كتـاب الله ، ولا يصح أنْ يُوجَّه مال الزكاة لشىء ينتفع به الغنى أبداً .

ثم يقـول سـبحـانه : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] عثـا : أى أفسد . فـالمعنى : لا تُفسـدوا فى الأرض ، فلماذا كرَّر الإفـساد مرة أخرى فـقال ﴿مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] ؟ قالوا : المـراد : لا تعثَـوْا فى الأرض حالةَ كـونكم مفـسدين ، أو فى نيـتكم الإفساد .

وليس فى الآية تكرار ؛ لأنه فرَّق بين إفساد شىء وأنت لا تقصد إفساده ، إنمـا حركتك فى الحيـاة أفسدتْه ، وبين أنْ تُفسـد عن قصد وعَمْـد للإفـساد ، حتـى لا نمنع العقـول أن تفكر وتُجرِّبَ لتـصلَ إلى الأفضل ، وتُثرى حـركة الحياة ، فـما دُمْتَ قد قصـدتَ الصلاح ، فلا عليك إنْ أخطأتَ ؛ لأن ربك ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يتـولى تصحيح هذا الخطأ ، بل ويُعوِّضك عنه ، فمَنِ اجتهد فـأخطأ فله أجر ، ومَنِ اجتهد فأصاب فله أجران[1]

---

(١) عن عمـرو بن العاص أن رسـول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحـاكم فاجـتهد ثم أصـاب فله أجران ، وإذا حكم فـاجتهـد ثم أخطأ فله أجر » أخـرجه البخـارى فى صحيـحه (٧٣٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٧١٦) كتاب الأقضية .

إذن : المعنى : لا تُفسدوا فى الأرض وأنتم تقصدون الإفساد ، لكن فكيف نُفسد الأرض ؟ إن إفساد الأرض يعنى إفسادَ المتحرك عليها ؛ لأن الأرض خُلقَتْ للإنسان ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ۝١٠ ﴾ [الرحمن]

وقد خلقها الله تعالى على هيئة الصلاح ، والإنسان هو الذى يُفسدها ، بدليل أنك لا تجد الفساد إلا فيما للإنسان دَخْل فيه ، أما مَا لا تطوله يده ، فيظل على صلاحه ، وعلى استقامته وسلامته .

والإنسان الذى خلقه الله وجعله خليفة له فى أرضه طُلب منه عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها ، تحقيقاً لقول ربه عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. ۝٦١ ﴾ [هود]

ولا يصلح أن نستعمر الأرض وهى خراب ، فإذا ما كثُر النسل لا يقابل زيادة فى استثمار الأرض ، فتحدث الأزمات ، ولو أن استثمار الأرض وإصلاحها سار مع زيادة النسل فى خطين متوازيين لما شعر الناس بالحاجة والضيق ، ولما أحاطت بهم الأزمات .

والآن حين تسير فى الطريق الصحراوى مثلاً تجد المزارع فى الصحراء ، وتجد القرى الجديدة تحولت فيها الأرض الجرداء إلى خضرة ونماء ، فأين كانت هذه الثورة ؟ لقد كنا كُسالى وفى غفلة حتى عَضَّنا الجوع ، وضاقتْ بنا الأرض الخضراء فى الوادى والدلتا .

وإذا لم يُصلح الإنسان فى الأرض فلا أقلَّ من أنْ يتركها على حالها الذى خلقها الله عليه . لكن رأينا الإنسان يُفسد الماء ويُلوثه

---

(١) أى : أذن لكم فى عمارتها واستخراج قوتكم منها وجعلكم عُمَّارها . وأعمره المكان واستعمره فيه : جعله يعمره . [لسان العرب ـ مادة : عمر] .

حين يصرف فيه مُخلَّفاته ويُفسد الهواء بعادم السيارات والمصانع ، ويُفسد التربة بالكيماويات والمبيدات ، وكل هذا الإفساد خروج عن الطبيعة الصافية التى خلقها الله لنا ؛ ذلك لأننا نظرنا إلى النفع العاجل ، وأغفلنا الضرر الآجل .

لقد خلق الله لنا وسائل الركوب والانتقال ، وجعلها آمنة لا ضررَ منها : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [النحل] نعم ، وسائل النقل الحديث أسرع ، وأراحتْ هذه المواشى ، لكنها أتعبتْ الإنسان الذى خلق الله الكون كله لراحته . فترى الرجل يركب سيارته وكل هَمِّه أنْ يُسرِع بها دون أنْ يهتم بضبطها وصيانتها ، فينطلق بها مُخلِّفاً سحابة من الدخان السَّام الذى يؤذى الناس ، أما هو فغير مكترث بشىء ؛ لأن الدخان خلفه لا يشعر به .

لكن ، احذر جيداً ، إن ربك - عز وجل - قيوم لا يغفل ولا ينام ، وكما تدين تُدان فى نفسك ، أو فى أولادك .

كذلك قبل أن نركب السيارات ونُسرِع بها يجب أنْ نُمهِّد لها الطرق حتى لا تثير الغبار فى وجوه الناس ، وتؤذى تنفسهم ، بل وتؤذى الزرع أيضاً ، كل هذه وُجوه للإفساد فى الأرض ؛ لأننا ندرس عاجلَ النفع ولا ندرس آجل الضرر .

وعليك حين تجتهد أنْ تجتهد بمقدِّمات سليمة ، لتصل إلى النتائج السليمة ، ولا تكُنْ من المفسدين فى الأرض .

ومن الإفســاد فى الأرض قَطْع الطريق ، وهو أن المتلـصِّص يقيم فى مكانه يرصُـد ضحـيتـه إلى أن تمر به ، والإغـارة وهى أنْ يذهب المغير إلى المغَار عليه فى مَأمنه ، فيسلبه ماله .

ومن الإفـساد فى الأرض الرُّشْـوة ، وهى من أنكَى النكبـات التى بُلِى بها المـجتمع ، وهى تُولِّد التسـيُّب وعدم الانضباط ، فـحين ترى غيرك يستغلك ، ويستـحلّ مالك دون حق ، تعامله وتعامل غيره نفس المعاملة ، فـتصير الأمور فى الأجهزة والمـصالح إلى فوضى لا يعلم مداها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ(١) الأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾

فإياك أن تظن أن الله تعـالى خلقنا عبـثاً ، أو يتركنا همـلاً ، إنما خلقنا لمهمة فى الكون ، وجـعلنا جميعاً عبيـداً بالنسبة له سواء ، فلم يُحَابِ منا أحداً على أحد ، وليس عنده سبـحانه مراكز قوى ؛ لذلك لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ولأننا جمـيعاً أمـامه سـبحانه سـواء وهو خالقنا ، فقـد تكفَّل لنا بالرزق ورعاية المصالح ، فَمن ابتلاه الله بالعـجز عن الحركة فتحركْتَ أنت لقـضـاء مـصـالـحـه ، لا بُدَّ أن ينظر الله إلـيك بعـين البـركـة والمضاعفة .

فالمعوَّق والفقير بحقٍّ ـ لا الذى يتخذها مهنة وحرفة يرتزق بها ـ هذا الفقـير وهذا المعـوَّق هم خَلْق الله وأهل بلائه ، فحـين تعطيه من

(١) قال مجاهد : الجبلة هى الخليقة . وجُبل فلان على كذا أى خُلِق . قال الهروى : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس . [تفسير القرطبى ٧/٥٠١٦] .

ثمرة حركتك أنت ، وتذهب إليه وهو مطمئن فى بيته ، أنت بهذا العمل إنما تستتر على الله بلاءه ، وتكون يد الله التى يرزق بها هؤلاء ، وعندها لا بُدَّ أن يحبك الفقير ، وأنْ يدعو لك بالخير والبركة والزيادة والأَجْر والعافية والثواب ، ويعلم أن الله خلقه ولم يُسلمه .

أمَّا إنْ ضَنَّ الغنىُّ الواجد على الفقير المعدَم ، وتخلى عن أهل البلاء ، فلا بُدَّ أنْ يسخط الفقير على الغنى ، بل يسخط على الله ـ والعياذ بالله ـ لأنه ما ذنبه أن يكون فقيراً ، وغيره غنىٌّ فى مجتمع لا يرحم .

وعجيب أن نرى مُبتلىً يُظهر بلواه للناس ، بل ويستغلها فى ابتزازهم ، فيُظهر لهم إعاقته ، كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ولو أنه ستر على الله بلاءه وعلم أنه نعمة أنعم الله بها عليه لَسخَّر الله له عافية غير المبتلى ، ولجاءه رزقه على باب بيته ، فلو رَضِى أهل البلاء لأعطاهم الله على قَدْر ما ابتلاهم .

فمعنى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ .. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : احذروا جبروته ؛ لأنه خلقكم ، وضمن لكم الأرزاق ، وضمن لكم قضاء الحاجات ، حتى العاجز عن الحركة سخَّر له القادر ، وجعل للغنى شرطاً فى إيمانه أنْ يُعطى جزْءاً من سَعْيه للفقير ، ويُوصلَه إليه وهو مطمئن .

ومعنى : ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء] الجبلة من الجبَل ، وكان له دور فى حياة العربى ، وعليه تدور الكثير من تعبيراتهم ، ففيه صفات الفخامة والعظمة والرسوخ والثبات ، فاشتقوا من الجبل (الجبلّة) وتعنى الملازمة والثبات على الشىء .

ومن ذلك نقول : فلان مجبول على الخير يعنى : ملازم له لا يفارقه ، وفلان كالجبل لا تزحزحه الأحداث ، والعامة تقول : فلان

جبلَّة يعني : ثقيل على النفس ، وقد يزيد فيقول : (مال جبلّتك وارمة) مبالغة في الوصف .

حتى أن بعض الشعراء يمدح ممدوحه بأنه ثابت كالجبل ، حتى بعد موته ، فيقول عن ممدوحه وقد حملوه في نعشه :

مَا كنتُ أحْسَبُ قَبْلَ نَعْشكَ أنْ أرَى   رَضْوَى[1] عَلَى أيدى الرجَالِ يَسِير

ورَضْوى جبل اشتُهر بين العرب بضخامته .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ..(٦٢) ﴾ [يس]

ومعنى : ﴿ والْجِبِلَّةَ الأَوَّلِين (١٨٤) ﴾ [الشعراء] أي : الناس السابقين الذين جُبلوا على العناد وتكذيب الرسُل ، فالله خلقكم وخلقهم ، وقد رأيتُم ما فعل الله بهم لما كذَّبوا رسُله ، لقد كتب الله النصر لرسله والهزيمة لمن كذَّبهم ، فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبِلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يُزحزحهم عن التكذيب شيء ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم . فماذا كان ردّهم ؟

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) ﴾

قلنا : إن مُسحَّر : أي سحَره غيره ، وهي صيغة مبالغة للدلالة على حدوث السحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سُحِر مرة واحدة لَقُلْنا : مسحور والمعنى : أنك مخْتَلُّ العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك .

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (١٨٦) ﴾

(١) رضوى : جبل بالمدينة . [لسان العرب ـ مادة : رضى] .

وما دُمْت أنت بشراً مثلنا ، ولم تتميز عنَّا بشيء ، فكيف تكون رسولاً ؟ ثم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)﴾ [الشعراء] أى : وما نظنك إلا كذاباً ، كالذين سبقوك .

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا(١) مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)﴾

أى : إنْ كنتَ صادقاً ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (١٨٧)﴾ [الشعراء] يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا(٢) عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢)﴾ [الأحقاف]

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون انظرنا ، كيف وأنتم الذين استعجلتم العذاب ؟

ومعنى ﴿كِسَفًا .. (١٨٧)﴾ [الشعراء] مفردها كِسْفة ، مثل قطَع وقطعة ، وقد وردتْ هذه الكلمة على ألسنة كثير من المكذّبين ، وقالها الكفار للنبى محمد ﷺ : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢)﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : جانباً من السماء وقطعة منها ، فننظر إليه . قال الجوهرى : الكسفة القطعة من الشىء [تفسير القرطبى ٧/٥٠١٦] .

(٢) أى : أجئتنا لتصرفنا وتصدنا . والأفَّاك : الذى يأفك الناس أى : يصدهم عن الحق بباطله . [لسان العرب ـ مادة : أفك] .

وقالوا ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان عليهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدِنا إليه ، وهذا يدلُّك على حُمْقهم وعنادهم .

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) ﴾

فهو سبحانه العليم بكم : إنْ كنتم أهلاً للتوبة والندم والأمل ، أنْ تتوبوا فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصرِّين على العصيان والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك والاستئصال ، فأنا لن أحكمَ عليكم بشيء ؛ لأنني بشر مثلكم لا أعرف ما في نياتكم ؛ لذلك سأكِلُ أمركم إلى ربكم - عز وجل - الذي يعلم أمري وأمركم ، وسِرِّي وسرَّكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾

فكيف يُكذِّبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلهم إلى ربهم إذن : فهم لا يُكذِّبونه إنما يُكذِّبون الله ؛ لذلك يأتي الجزاء : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [الشعراء]

وهو عذاب يوم مشهود ، حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، عاشوها في قيظ شديد ، وقد حجز الله عنهم الريح إلا بمقدار ما يُبقي رَمَق الحياة فيهم ، حتى اشتد عليهم الأمر وحميَتْ من تحتهم الرمال ، فراحوا يلتمسون شيئاً يُروِّح عنهم ، فرأوا غمامة

قادمة فى جو السماء فاستشرفوا لها وظنوها تخفف عنهم حرارة الشمس ، وتُروِّح عن نفوسهم ، فلما استظلُّوا بها ينتظرون الراحة والطمأنينة عاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر .

على حَدِّ قوْل الشاعر :

كَمَا أمطَرتْ يَوْماً ظماءً غمامةٌ ... فلمَّا رَأَوْهَا أقشعَتْ وتجلَّتِ[1]

ويا ليت هذه السحابة أقشعت وتركتهم على حالهم ، إنما قذفتهم بالنار والحُمَم من فوقهم ، فزادتهم عذاباً على عذابهم .

كما قال سبحانه فى آية أخرى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا[2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

لذلك وصف الله عذاب هذا اليوم بأنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء] فما وَجْه عظمته وهو عذاب ؟ قالوا : لأنه جاء بعد استبشار واسترواح وأمل فى الراحة ، ففاجأهم ما زادهم عذاباً ، وهذا ما نسميه « يأس بعد إطماع » وهو أنكَى فى التعذيب وأشقّ على النفوس .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] أى : فما حدثتكم به ﴿ لَآيَةً .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] يعنى : عبرة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعبر

(١) انقشع السحاب وتقشَّع : ذهب عن وجه السماء . وانقشع الغيم وتقشَّع وقشعته الريح ، أى : كشفته فانقشع . [لسان العرب ـ مادة : قشع] .

(٢) العارض : السحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذباً آمن وصدق ، وإن كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع .

وما قصصتُه عليكم من مواكب الرسل وأقوامهم ، وهذا الموكب يضم سبعة من رسل الله مع أممهم : موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام ، وقد مضى هذا الموكب على سنة لله ثابتة لا تتخلف ، هى : أن ينصر الله - عز وجل - رسله والمؤمنين معهم ، ويخذل الكافرين المكذِّبين .

فلتأخذوا يا آل محمد من هذا الموكب عبرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٩٠)﴾ [الشعراء] يعنى عبرةً لكم ، وسُمِّيتْ عبرة ؛ لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذِّباً آمن وصدَّق ، وإنْ كان معانداً لاَنَ للحق وأطاع ، وقد رأيتم أننا لم نُسْلم رسولاً من رسلنا للمكذبين به ، وكانت سنتنا فى الرسل أن ننصرهم .

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومن العبرة نقول : عبر الطريق يعنى : انتقل من جانب إلى جانب ، والعبرة هنا أن ننتقل من التكذيب واللدد والجحود والكبرياء إلى الإيمان والتصديق والطاعة ، حتى العَبرة (الدَّمْعة) مأخوذة من هذا المعنى .

وفى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠)﴾ [الشعراء] حماية واحتراس حتى لا نهضم حق القلَّة التى آمنت(١) .

---

(١) قيل : آمن بشعيب من الفئتين (أهل مدين ، أصحاب الأيكة) تسعمائة نفر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥٠١٨/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾

ربك : الرب هو المتولِّى الرعاية والتربية . وبهذه الخاتمة خُتمتْ جميع القصص السابقة ، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُختم بهذه الخاتمة الدَّالة على العزة والرحمة .

ثم ينتقل السياق إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بعد أنْ قدَّم لنا العبرة والعظة فى موكب الرسل السابقين ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾

﴿ وَإِنَّهُ .. (١٩٢) ﴾ [الشعراء] على أىِّ شىء يعود هذا الضمير ؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه هذا الضمير وهو لم يُسبَق بشىء . تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه فيعود ضمير الغائب فى أكرمته على (رجل)

وكما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] فالضمير هنا يعود على لفظ الجلالة ، مع أنه متأخر عنه ، ذلك لاستحضار عظمته تعالى فى النفس فلا تغيب .

كذلك ﴿ إِنَّهُ .. (١٩٢) ﴾ [الشعراء] أى : القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه : ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ [الشعراء] وقُدِّم الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذِّهْن إلا إليه ، فحين تقول ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص] لا ينصرف إلا إلى الله ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ [الشعراء] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم(١) .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧) : « (وَإِنَّهُ) أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ .. (٥) ﴾ [الشعراء] » .